صفقة

«الفيلا» زاخرة بشتى أسباب العز والثراء.. وهي واقعة في أرقى أحياء المدينة الكبيرة.. في إحدى قاعات الاستقبال.. صاحب الدار وفي ضيافته لفيف غير متوائم من رجال الأعمال.. ملتفون حول منضدة ضخمة، وقد تناثرت أمامهم الأوراق.. فوق المنضدة تتألق «صينية» كبيرة احتوت ألوانًا وأصنافًا من فواتح الشهية.. أي «المَزَّة».. ويبدو أنهم يخططون لصفقة.. فالأرقام طاغية على معظم حديثهم، والأصفار تتزايد.. يتبارون في اللعب بالألفاظ والمناورات والمراوغات.. تتخللها إيماءات ورموز ومصطلحات خاصة.. باستثناء أحدهم فلم يكن على شاكلتهم، وليس له في حديثهم شيء ولا في مجلسهم مأرب.. فالظروف وحدها هي التي رمت به إلى ذلك المكان.. عندما داست قدماه أرض «الفيلا».. بهرته مظاهر الأشياء.. وفي حديثهم أخذته وسائل التعبير، وأذهلته ضخامة الأرقام.. إلا أنه سرعان ما سئم هذا وذاك؛ ليشغل نفسه بالتعامل مع «المَزَّة» والمشروبات المثلجة والساخنة!

دخلت الخادمة.. الخادمة!! لكأنها سيدة الدار.. لقد اهتموا - أيضًا - بانتقاء الخادمة لتكتمل اللوحة الرائعة.. و.. كم يكون جمال السيدة؟! انحنت الخادمة لتضع «صينية» الكؤوس على المنضدة.. شعرت بعينين تفحصانها.. وبالطبع، وقفت على امتلاء ردفيها واستدارتهما.. خرجت بعد أن حددت مكان صاحبها..

مرت فترة لتأتي بـ «صينية» أخرى تحوي «مَـزَّة» جديـدة! لم يكلفها العناء لمعرفته عندما أعاد إليهـا كأسـه فارغـة.. وأفرغ في عينيها نظرة.. ردت عليها بابتسامة خفيفة.

قام صاحب الدار بنفسه ليفتح صيوانًا صغيرًا، ويخرج منه زجاجة سوداء كبيرة لوَّح بها في زهـو هاتفًـا بـصنفها وقِدمها وثمنها.. لتشع في الوجوه ابتسامة رضاء.. أفـرغ منها في كؤوس الندمان ليقذفوا به في معداتهم.. والخادمة تتردد كل حين بداع وبدونه.. ترمق صاحبنا بكل عينيها، وتخصه بأحلى ابتساماتها ليتفرغ كلية لها!

في حجرة النوم، سيدة الدار مشغولة بزينتها.. تتحدث للمرآة أكثر مما تتزين.. تُشهدها عـلى حالهـا ومـا وصـل إليه.. فشلت الأصـباغ أن تطمـس سـحابة الحـزن التـي ظللت صفحة وجهها.. ومع ذلك، واصلت تزينها في دقة فائقة! بينما تردد في أعماقها:

- يا ليت!

التفتـت نحـو مخـدعها الـوثير.. استـشعرت الـضوء الخافت الدافئ.. المثير.. ألقت نظرة على الساعة، عقـرب الثواني يتقافز في قلق.. كأنه يتمرد من أجلها.. أخرجـت تنهيدة من أعماقها.. تكاد تختنق.. قامت إلى الشرفة حيث الهواء البارد.. تنفست بعمق.. الساهرون ترتفع أصواتهم وضـحكاتهم.. تعليقـات تتبعهـا الـضحكات.. أي تعليقات! والكؤوس مـا زالـت تـترع.. عـادت تتنهـد.. وكانـت الخادمـة قـد جلـست في الـصالة بحيـث يراهـا وحده.. يتبادلان إشارات ذات مدلول.

تركت السيدة الشرفة.. فتحت باب الحجرة في ملل.. الضحكات تعقبها أخرى أشد.. كأنما تغيظها وتتحداها وتسخر منها.. لمحتها الخادمة، فأطلقت ساقيها إلى المطبخ، ووقفت تلهث من شدة الرعب.. شعرت السيدة بحركة غير عادية.. خطت في الصالة.. لمحت الكرسي فعلتها الدهشة.. وقفت تفكر للحظات.. حسبها صاحبنا الخادمة.. واصل إشاراته في حرص.. فهمت أنه لم يكن يقصدها، ومع ذلك دب قلبها!..

- تبًّا لكِ أيتها اللعينة..

واصلت خطاها حتى المطبخ.. كظمت غيظها.. تبادلت مع الخادمة سؤالًا وجوابًا.. هزت السيدة رأسها، وغمغمت بكلام غير مسموع.. لم تجرؤ الخادمة على الاستفسار.. ولتها السيدة ظهرها، وعادت أدراجها متحسسة الأرض بقدميها.. أصبحت أمام القاعة.. نظرت من زاويتي عينيها.. لمحت اضطرابه.. واصلت سيرها.. أحست بعينيه تتبعانها.. دب قلبها ثانية وأصابتها رعشة.. وقفت أمام مرآتها.. استدارت وعادت تنظر إلى المرآة ثانية.. يا لجمال ساقيها!

- لعل بصره قد وقع عليهما..

تذكرت تعليق زوجها:

- لقد حباكِ الله بساقين ما أبدعهما!! كم أغبط نفسي!

أغلقت باب الحجرة، وتعمدت أن تدع فتحة صغيرة لتتابع منها الخادمة.. تمايل السكارى قبل عقد الصفقة،

فلم تمهلهم الخمر.. إذ ثقلت ألسنتهم، وتثاقلت أحاديثهم لتدوي بلا معنى..

انتظرت الخادمة.. اطمأن قلبها حين أغلقت سيدتها الباب..

- لقد أخلدت إلى النوم كعادتها.. عهدي بها غبية.. فلم ولن تفهم شيئًا!

كتمت ضحكة.. خلعت مداسها، وخطت في حذر نحو حجرة السكارى.. ابتسمت حين وجدت المقعد مكانه:

- وهذا دليل آخر على غبائها..

اشتد وجيب قلب السيدة بينما كان يناوشها شعور غريب! أطفئ نور الصالة.. شهقت السيدة.. شعرت ببرودة أعضائها.. رأته يخرج من الحجرة.. كتمت صرخة كادت تنفلت من بين شفتيها.. تلفت يمينه ويساره.. ألقى نظرة على السكارى.. وعلى صاحب الدار.. كاد يقهقه، فقد ذهبت عقولهم أجمعين.. اندسَّ في ظلام الصالة.. هرولت السيدة إلى مخدعها.. الفراش كالثلج.. شعرت بيد تخنقها وشيء ثقيل يرتمي على صدرها..

أخفت وجهها بيديها.. وانبرت تتخيل ما يمكن أن يحدث بين خادمتها والغريب الفارع الطول.. تخيلت أشياء أخرى..

- إنه.. إنه أشد فتوة.. لا.. لا..

هزت رأسها بعنف كأنما أرادت أن تطرد فكرة من عقلها.. تذكرت حينما ضبطت الخادمة متلبسة وهي

تتلصص بالقرب من حجرة نومها.. وقد نهرتها وهددتها بالطرد إن عادت إلى ذلك مرة أخرى.. وها هي المتبجحة تفعل الفحشاء.

- و.. لكن كيف يحدث ذلك في بيتي؟! مستحيل.. مستحيل..

استدارت نحو المرآة.. أصلحت من شعرها وهندامها.. لمحت عبوسها.. حاولت أن تبدو طبيعية.. خطت في الصالة كأنما تخطو في بئر فقلبها يغوص.. ودقاته تهزها هزًّا.. سرت في جسدها رعدة.. عادت أدراجها.. داخلها يئن.. بل يصرخ.. أرسلت عيناها بريقًا مخيفًا.. خرجت بغيرة الأنثى.. هرولت في الصالة.. ولكنها التقت به عند الشعاع الخارج من حجرة السكارى.. التقت عيناهما.. غرق في عينيها.. وقرأ فيهما معاني.. أوضحها الأنوثة الهائجة.. و.. عاد يجلس في مكانه نفسه.. السكارى في غيبوبة.. انطلقت السيدة إلى المطبخ.. التقت عينا المرأتين.. ابتسمت الخادمة في نشوة.. لعقت من على شفتيها آثار اللذة.. اشتد حنق السيدة.. ولم تلبث أن أغلقت باب المطبخ، وأدارت المفتاح لتسجن الخادمة.. الصداع يكاد يفتك برأسها.. والنيران تندلع في كل جسدها.. الرغبة والظروف مهيأة.. وهي.. هي سيدة الدار.. عادت.. نسيت كل شيء إلا ما قرأته في عينيه، لقد انتظرت زوجها الهمام أن يخفَّ لنجدتها من حريقها ويطفئ لظاها.. ولم يأتِ.. لم يأتِ بالأمس.. ولا قبل ذلك.. ولا.. ولا.. كأنه لن يأتي.. وقفت تجاهه.. رأت

عينيه تلمعان كعيني الصقر.. وأسنانه - أيضًا - تلمعان بابتسامة.. إنه واثق بدعوتها له.. أشارت بأن يتبعها.. اتسعت ابتسامته.. فالأكلة دسمة.. والصيد ثمين.. ألقى على السيد الهمام نظرة.. تذكر حديثه في بداية الليلة عن الصفقة.. لعله قصد صفقته هو.. تبعها.. بحثت الخادمة عن المفتاح الآخر.. عثرت عليه بعد عناء.. فتحت الباب، أسرعت تجاه حجرة سيدتها.. لم تجد صائدها في موقعه.. اتجهت نحو مفتاح المصباح.. سمعت صوت أقدام خائفة.. فتحت المصباح، فأضاءت الصالة.. كشفت عنهما.. شهقت السيدة.. لم تستطع العودة إلى حجرتها من هول المفاجأة.. فتحت فمها لتكيل لها السباب.. لم تستطع.. خطت الخادمة حتى وقفت في مواجهة سيدتها.. تبادلت معها نظرة قاسية.. قالت الخادمة بعينيها:

- إننا سواء..

دخل صاحبنا حجرة السكارى.. فتح السيد عينيه بصعوبة بالغة اتسعت قليلًا.. وسؤال على طرف لسانه، ولا يستطيع أن يحرك لسانه به.. ورآه يحمل حقيبته وينصرف.. وقد جاء إلى سمع المرأتين صوت ارتطام الباب الخارجي.

* * *